

الاستفهام في سورة يوسف: دراسة لسانية تداولية
The question in Surat Yusuf : linguistic and pragmatic study

الطالب: أحمد مزواغي

إشراف: أ.د/ محمد ملياني

قسم اللغة العربية-أحمد بن بلة-وهران01(الجزائر)

ahmedmezouaghi48@gmail.com

تاريخ النشر: 2018/06/10

تاريخ المراجعة: 2018/06/06

تاريخ الإيداع: 2018/05/21

الملخص:

الاستفهام من الأساليب الإنشائية الطلبية ذات الأهمية البالغة في عمليتي الحوار والاقناع؛ إذ لا يمكن للمرسل أو القائم بالاتصال بأي حال من الأحوال الاستغناء عنه في العملية التواصلية والتبليغية، فهو وقود الحوار به تتسع رقعة بين الطرفين المتحاورين أو الأطراف المتحاوره، فكلما زادت رقعة الحوار اتساعا زادت و اتسعت مساحة الحجاج، وارتفعت نسبة الاقناع فيها.

ولعلّ الاستفهام بنوعيه الحقيقي و المجازي كان حاضرا في سورة يوسف(عليه السلام)، و شكل أهمية بالغة في العملية التواصلية التبليغية ببناء حلقة الحوار بين شخصيات قصتها سواء ما دار بين يوسف(عليه السلام) و إخوته أو بنيه و بين السجينين، أو ما دار بين يعقوب . عليه السلام . و أبناؤه، أو ما دار بين اخوة يوسف مع بعضهم البعض. وقد حاولت في هذا المقال الموسوم بالاستفهام في سورة يوسف (دراسة لسانية تداولية) أن أعالج مفهوم الاستفهام لغة واصطلاحا و التعرف على نوعيه الحقيقي و المجازي وأهميته التبليغية والحجاجية في العملية التواصلية و أثره الإقناعي في سورة يوسف (عليه السلام) الكلمات المفتاحية: البلاغة ; الاستفهام ; التبليغ ; التواصل ; الحوار ; الحجاج ; الاقناع.

The summary :

This article, entitled "the interrogative form in Youssef's surat, a linguistic and pragmatic study", proposes to treat the concept of interrogation, to understand it from its linguistic and terminological angles, and to detect its two modes of expression, namely the meaning proper or real and the figurative or metaphorical sense and to grasp its importance to inform and argue in the communicative act and its effects of persuasion.

Etymologically, the Arabic word "el istifham" means the search for understanding. Similarly, on the terminology side, the word refers to this attitude of collecting information on a specific object / subject. This in no way excludes the possibility that the one who interrupts could be well informed on the question which he poses but which, all the same, aspires to require in another sense. Multiple senses which would, of course, be contextually determined and which can express the psychological state or emotional of this applicant.

This plethora of meaning is conceived in rhetorical studies as rhetorical goals / objectives or eloquence assignments.

It would still be necessary for the rhetoricians to grasp the concept of interrogation in a double dimension of that of the proper use that makes prevail the real or usual aspect and that of the figurative use that makes prevail the metaphorical aspect.

While interrogation in its own or real sense rather objects the question in its natural order that is not ready for any metaphorical figuration and aimed essentially at the search for understanding and the desire to reveal the mysterious, the questioning in the figurative sense, lends itself to other objectives or rhetorical assignments which are very diversified but which can be surrounded by the context, and of which it is the subject of Arabic rhetoric in general and Koranic in particular, or the it is argued for its benefits to argue and convince.

Indeed, the two forms of interrogation, that is to say the interrogation in its own or real aspect, and the interrogation in its figurative or metaphorical aspect, are present in the Surat of Youssef. This presence has, indeed, , provided a fulcrum of great importance in the communication and informational operation. It is obvious that this usual physiology has created a timely atmosphere or develops the dialogue between the characters of the story, so we hear a dialogue between Youssef and his brother, or between Youssef and the prisoners. As there is on the other side

the dialogue which begins soon Jacob (peace be upon him) and his sons, sometimes between the brothers of Youssef them -Same.

The interrogation in its proper and actual dimension in Youssef's surah is a form of questioning, or rather, this attitude of wanting to know, like the question posed by the king to women, concerning the incident of the attempt to seduction: "what was your intention, when you stew seduce to seduce Youssef", reveals that the one who interrupts was essentially trying to find out about the incident and to seize details.

However, the interrogation in its figurative or metaphorical aspect in the sura seized under the different assignments of eloquence that is an affirmation or a negation, a reproach or a repugnance or a call of attention, constitutes an impregnable range in our study. Nothing more because it is commonly believed that the figured dimension of the interrogation is, at first glance, an asset on the establishment of dialogue processes. This is obvious in the passage or Youssef interrogate the two prisoners "what is better a multitude of divinities or a single God, supreme domineering", the interrogation proves to be a proof is an argument of the existence of a God who has no equal.

As a result, interrogation is revealed as a style or a constructive form of contribution, perative or vocative, of paramount importance in the process of dialogue and persecution which the sender is forced to use.

key words: Rhetoric-interrogation-information-dialogue-argumentation-persuasion (to convince).

تقديم:

الاستفهام لغة؛ طلب الفهم ، وفي لسان العرب (لابن منظور) « استفهمه أي: سأله أن يفهمه»¹.
وأما اصطلاحاً فمعناه: الاستخبار عن الشيء، لكن قد يكون المستفهم عالماً بالشيء، و مراده بعض المعاني الأخرى التي يمكن أن تستفاد من سياق الكلام، و من هنا استعمل البلاغيون مصطلح الاستفهام لمعناه الحقيقي وغير الحقيقي (المجازي).

فأما الاستفهام الحقيقي؛ هو الذي يرد على ما استعمل له في الاصل أي: طلب الفهم و معرفة المجهول كأن تقول مثلاً: من أنت؟ أين تسكن؟ ما مستواك الدراسي؟ هل تتقن اللغة العربية؟ أت حفظ القرآن الكريم؟ فالغرض من هذه الاستفهامات هو الاستفسار و معرفة الاجابة.

و أما الاستفهام المجازي؛ يراد به الاستفهام الذي يخرج عن حقيقته و يكون صاحبه عالماً بالشيء و غرضه منه معان أخرى تفهم من السياق أي: يخرج الى أغراض بلاغية مختلفة يحددها السياق منها: التقرير و الإنكار، النفي و الإثبات، التعجب و التذكير، التنبيه و التوبيخ و غيرها من الأغراض. فالاستفهام المجازي هو الذي تهتم به البلاغة العربية عموماً و البلاغة القرآنية خصوصاً بغرض المحاجة و الاقناع.

الاستفهام في سورة يوسف: لعل الاستفهام بنوعيه الحقيقي و المجازي كان حاضراً في سورة يوسف.

أ_ الاستفهام الحقيقي في سورة يوسف:

و أما الاستفهام الحقيقي هو ما كان بغرض الاستفسار فقط أي: طلب الفهم أو العلم بالشيء كقوله تعالى على لسان الملك: {قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَأَدْتُنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْ حَسْبَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمْرَأْتُ الْغَزِيرِ الْقَنْ

حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝²

فالاستفهام في قوله: (مَا خَطْبُكَ) حقيقي غرضه الاستفسار و طلب معرفة و فهم تفاصيل القضية المتمثلة في حادثة المراودة.

و كقوله تعالى: أيضا على لسان (إخوة يوسف عليه السلام) اثر اتهامهم بالسرقة: قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا

تَفْقِدُونَ ﴿٣﴾

ففي قولهم {مَاذَا تَفْقِدُونَ}؟ استفهام حقيقي أريد به الاستفسار عن الشيء المفقود أو المسروق.

ب- الاستفهام غير الحقيقي (المجازي) في سورة يوسف:

و أما الاستفهام المجازي على اختلاف أغراضه البلاغية وهو الأهم في هذه الدراسة ؛ كونه يشكل بيت القصيد في بناء العملية الحوارية الإقناعية، وهذا ما سأحاول الخوض فيه بالشرح والتحليل والاستدلال قصد اثباته وتوضيحه.

ب1_ استفهام اخوة يوسف لوالدهم:

قال الله تعالى- : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴿٤﴾﴾ ٤ فصيغة السؤال ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى

يُوسُفَ ﴾ ؟ إنما تدلّ على تكرار وتعدّد محاولاتهم الرّامية إلى أخذ أخيم معهم ، وتنفيذ مؤامرتهم ضده ، والتي يبدو أنّها قد باءت كلّها بالفشل نتيجة رفض يعقوب -عليه السّلام - لطلبهم ولكّتهم لم يتوانوا عن تنفيذ خطّتهم، فظلّوا حريصين على ذلك بإلحاحهم على والدهم وتوكيداتهم له بحفظ أخيم ورعايته ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ ﴾ و﴿ إِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ ﴾ قصد التّأثير عليه ليتراجع عن رأيه المتمثل في الامتناع وإقناعه بفكرتهم وطلبهم .

وقولهم : ﴿ يَا أَبَانَا ﴾ « بهذا اللفظ الموحى المذكّر بما بينه وبينهم من أصرّة »⁵

له تأثير نفسي وسلوكي على شخصيّة والدهم ، فنداؤهم له بصيغة الجماعة فيه نوع من الاستمالة العاطفيّة من خلال دغدغة مشاعر الأبوة لديه قبل توجيه السؤال ﴿ مالك لا تأمنا على يوسف ﴾ ؟ « سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفي ، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبهم ، والتّسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم (يوسف) ، فهو كان يستبقي (يوسف) معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والجهات الخلوية التي يرتادونها لأنّه يحبّه ويخشى عليه ألاّ يحتمل الجوّ والجهد الذي يحتملونه وهم كبار ، لا لأنّه لا يأمنهم عليه فمبادرتهم له بأنّه لا يأمنهم على أخيم وهو أبوهم ، مقصود بها استجاشته لنفي هذا الخاطر، ومن ثمّ يفقد إصراره على احتجاز يوسف ، فهي مبادرة ماكرة منهم خبيثة!»⁶

و« صيغة السؤال تشي بما يمكن أن يبيتوه ، وهي ظاهرة تتحدّث عن نفسها في سياق آخر ، سياق المنافقين الذين كانوا يأتون إلى رسوله . صلّى الله عليه وسلّم . ويشهدون الله على ما في قلوبهم وهم كاذبون »⁷

، قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿٨﴾

يقول (ابن عاشور) : « ولعلّ يعقوب . عليه السّلام . كان لا يأذن ليوسف . عليه السّلام . بالخروج مع إخوته للرعي أو للسّياق خوفا عليه من أن يصيبه سوء من كيدهم أو من غيرهم ، ولم يكن يصحّ لهم بأنّه

لا يأمنهم عليه ولكن حاله في منعه من الخروج كحال من لا يأمنهم عليه فأنزلوه منزلة من لا يأمنهم ، وأتوا بالاستفهام المستعمل في الإنكار على نفي الائتمان ⁹»

إذا فالغرض من استعمال الاستفهام هو الإنكار على نفي الائتمان للائتمان، أي: أن الغاية من توظيف إخوة (يوسف) لهذا الاستفهام (مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا) هي التأثير على أبيهم ليتراجع عن فكرة امتناعه بترك (يوسف) يذهب برفقتهم ، فكان النداء يلفظ ﴿ يَا أَبَانَا ﴾ والاستفهام الإنكاري ، والجملة الاعتراضية المؤكدة ﴿ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ بمثابة مقدمة تأثيرية إقناعية لتحقيق الرد الإيجابي عن طلبهم المتمثل في قولهم: ﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴾ ¹⁰

ب-2- استفهام امرأة العزيز لزوجها:

وقال- سبحانه وتعالى :- ﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ

سُوًّا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ¹¹

على إثر مراودة زوجة العزيز ليوسف -عليه السلام - و امتناعه عنها ركض جريا نحو الباب قاصدا الفرار و الهروب من هذه المحنة الخطيرة و المأزق الكبير المتمثل في إغواء و إغراء المرأة للرجل بجمالها وجسدها و إثارتة جنسياً لممارسة الفاحشة وتعقمها له محاولة منعه ، تتفاجأ بزوجها أمام الباب ، فتبادره بقولها ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوًّا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قبل أن يسألها هو دفعا أو درءا للتهمة والشبهة و الشك . ولكنها امرأة تعشق فهي تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ¹² فالعقاب بالسجن أو الضرب لا يودي بحياة (يوسف)، فهي إنما تريد باقتراحها هذا العقاب أن تبعد شك زوجها فيها ، و أن تقنعه ببراءتها ، وعفتها و طهارتها و إخلاصها في حبها له، هذا من جهة ، و من جهة أخرى تريد أن تردع (يوسف) حتى يقبل بحبها و يستجيب لرغبتها.

فلو أرادت أن تدفع الشبهة و تبرئ نفسها أمام زوجها فقط، لاكتفت في اتهامها ليوسف بالاستفهام ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوًّا ﴾ ؟ دون أن تقترح أو تشير إلى نوع العقوبة.

و يكون هذا الغرض من هذا الاستفهام حينئذ الاستفسار، أي طلب معرفة العقوبة التي يحددها زوجها. و لكن لما أشارت إلى زوجها بنوع العقوبة خرج استفهامها إلى غرض التقرير و التنبيه، أي : تقرير نوع العقوبة و تنبيه زوجها عليها. فيكون المعنى المتضمن في استفهامها على هذا النحو : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوًّا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يقول (ابن عاشور): « و ابتدرته بالكلام إمعانا في اليهتان بحيث لم تتلعثم ، تخيل له أنها على حق، وأفرغت الكلام في قالب كلي ليأخذ صيغة القانون، و ليكون قاعدة لا يعرف المقصود منها فلا يسع المخاطب الإقرار لها ولعلها كانت تخشى أن تكون محبة العزيز ليوسف . عليه السلام . مانعة له من عقابه فأفرغت له

كلامها في قالب كليّ ، و كانت تريد بذلك أن لا يشعر زوجها بأنها تهوى غير سيّدها و أن تخيف (يوسف) من كيدها لئلاّ يمتنع منها مرة أخرى¹³ »

يفهم من قول (ابن عاشور) أنّ زوجة (العزير) كانت سبّاقة في اتّهام يوسف -عليه السّلام- زورا وبهتاناً و بطلانا دون تلثم حتّى تبرئ ساحتها ، و تثبت التّهمة عليه ، كما أنّها لم تخصصه في اتّهامها له، أي لم تذكر اسمه إنّما استعملت الاسم الموصول العام¹⁴ (14) أو المشترك (من) حتّى يأخذ الحكم طابع الكليّة والشموليّة و حدّدت نوع العقوبة و الجزاء. ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: أنّه أي إنسان مهما كان يتجرأ على زوجتك أو يتعرّض لها بسوء لا بدّ أن يكون جزاؤه السّجن أو العذاب الأليم. و بهذا أخذ الكلام صبغة قانونية و قاعدة تضليلية تجعل المتلقّي يقتنع به و لا يراوده فيه الشكّ ، إذ أنّ اتّهام (زليخة) ليوسف في الإطار العام و الشامل باستعمال الاسم الموصول العام (من)، و تحديدها للجزاء أو العقوبة التي يستحقّها محاولة منها لإقناع زوجها بصدقها و براءتها و إثبات التّهمة على يوسف . عليه السّلام- ، كما أنّها محاولة لإخافة (يوسف) من كيدها حتّى يقتنع بأنها ذات سلطة و كلمة مسموعة، فلا يحاول أن يتملص أو يمتنع منها مرة أخرى.

و هذا ما يؤكده (أحمد جمال الدين) بقوله : « و(ما) في كلامها يحتمل أن يكون نفيًا لمعنى : ليس جزاء من أراد بأهلك سوء إلاّ السّجن أو العذاب و حينئذ يخرج الكلام مخرج التّقرير و الإخبار. » و يحتمل أن تكون (ما) استفهامية : بمعنى أي شيء جزاؤه إلاّ السّجن؟ كما تقول : من في الدار إلا زيد؟ . و حينئذ يخرج الكلام مخرج تجاهل العارف . و تجاهل العارف هو سؤال المتكلم عمّا يعلمه حقيقة تجاهلا منه لنكتة.

ثم يقول : « و مهما يكن من أمر هذا الأسلوب . إخبارا كان أو استفهاما . فإن امرأة (العزير) لم تصرح باسم (يوسف) و إنّما استخدمت الموصول العام (من) و ذلك لأنّها تريد تخويف (يوسف) تخويفا يثنيه عن ثباته في موقفه الرّافض للانصياع لإرادتها»¹⁵ ، و فعلا كان لها ما أرادت بدليل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسُجُنُّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾¹⁶ ، و المقصود بالآيات هاهنا هي الأدلّة التي تبرئ ساحة يوسف . عليه السّلام . من التّهمة الباطلة الملقاة على عاتقه.

ب-3- استفهام يوسف – عليه السّلام- للسّجينين:

قال تعالى: ﴿ يَصْنَعِي السّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾¹⁷

استهلّ يوسف -عليه السّلام- قوله بالنداء على السّجينين للفت انتباههما و استرعاء اهتمامهما لما سيأتي من القول، و نداؤه لهما (يا صاحبي السّجن) يعود إمّا لجهله اسميهما و إمّا للإشارة إلى الصّلة أو العلاقة التي أصبحت تربط بينهما في السّجن، فهي صلة المماثلة في الضّراء و التي أصبحت تضاهي صلة القرابة¹⁸. إذن فنداؤهما بهذه التّسمية (يا صاحبي السّجن) تذكير لهما بالصّلة أو العلاقة التي تربطهما ببعضهما البعض، و في هذا استمالة عاطفيّة تمهد و تهيّئ الجو النّفسيّ لتقبّل الفكرة و الاقتناع بالرسالة التي ستوجّه لهما من خلال الاستفهام (ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ؟) كما سبقت الإشارة إلى النداء

الوارد في لفظ (يا أبانا) من الآية 11 من سورة (يوسف) ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾؟ يقول (سيد قطب): «هو سؤال يهجم على الفطرة في أعماقها ويهزها هزاً شديداً، إنَّ الفطرة تعرف لها إلهاً واحداً، ففيم إذن تعدد الأرباب؟.. إنَّ الذي يستحق أن يكون رباً يعبد ويطاع أمره، ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار¹⁹ وفي ذلك ردّ لمعتقدهما وتقرير بإبطال دينهما وبناء على هذا فالاستفهام تقريرى²⁰، وفي هذا الاستفهام مخاطبة للعقل إذ لو كان هناك تعدد للآلهة والأرباب لتفرقوا واختلوا وتنازعوا فيما بينهم في تسيير نظام الكون وشؤون الخلق، ولسادت. بعد ذلك. الفوضى واختل نظام الكون والوجود، بدليل قوله -سبحانه وتعالى -: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾²¹، ويقول -عز وجل- في آية أخرى ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾²².

إذن، فالغاية من توظيف سيدنا يوسف. عليه السلام- لهذا الاستفهام ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾²³ هي تقرير وإثبات حقيقة تتمثل في وحدانية الله، ونفي التعدد. تعدد الآلهة - بغرض الإقناع بها، والاقناع بها - أي بهذه الحقيقة. يقتضي ويستوجب إخلاص العبادة لله وحده دون سواه.

ب-4- استفهام يوسف لإخوته:

قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾²⁴ فالاستفهام في قول يوسف. عليه السلام: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ غرضه الترغيب: يرغب إخوته وتحقّزهم على الإتيان بأخيهم الصّغير للاستفادة من عطائه وجوده عليهم بالقمح. وهذا ما يراه (ابن عاشور) حيث يقول: «ترغيب لهم في العود إليه، وقد علم أنّهم مضطرون إلى العود إليه لعدم كفاية الميرة التي امثروها لعائلة ذات عدد من الناس مثلهم، كما دلّ عليه قولهم بعد ذلك " ذلك كيل يسير" ودلّ قوله " خير المنزلين على أنّه كان ينزل الممتارين في ضيافته لكثرة الوافدين على مصر للميرة في المنزل: المضيف، وهذه الجملة كناية من الوعد بأن يوفي لهم الكيل ويكرم ضيافتهم إن أتوا بأخيهم»²⁵ فالمقصود بجملة الاستفهام الوارد في قول (يوسف) ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ هو الترغيب بهدف الإقناع، فبلا شك أن إخوة (يوسف) يرون جميل صنيع يوسف. عليه السلام. مع ضيوفه الوافدين عليه من مختلف البلدان، ويتمثل هذا الصّنيع في حسن ضيافتهم، وإغداقهم كرماً وسخاء. وهذا ما سينالونه ويتحصّلون عليه هم أيضاً إن استجابوا لطلبه وأحضروا أخاهم. ويفهم ذلك عن طريق التلميح والإشارة بواسطة الكناية المتضمّنة في الاستفهام.

إذا سيدنا (يوسف) حاول من خلال هذا الاستفهام إقناع إخوته بإحضار أخيهم الصّغير وإغرائهم وتحفيزهم بالكيل والإكرام وحسن الضيافة.

ب-5- استفهام يعقوب - عليه السلام- لأبنائه:

قال- سبحانه وتعالى- : ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۗ فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِظًا ۗ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۙ ﴾

26 ﴿

جاء جواب يعقوب . عليه السّلام . على طلب أبنائه . المتمثل في إرسال أخيم الصّغير غير الشقيق معهم ليكتالوا . في شكل استفهام ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۗ ﴾ ؟

فهو استفهام تضمّن معنى السّخرية و الإنكار من طلبهم المؤكّد بحفظ أخيم بقولهم : ﴿ ...فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانًا نَّكَتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴾²⁷ حيث ذكر هذا الكلام يعقوب . عليه السّلام . بالماضي الأليم ، بما فعلوه بيوسف . عليه السّلام . ، ذكره بخيانتهم ومكرهم بعد وعدهم له بحفظ أخيم ورعايته ، إذ قالوا : ﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ﴾²⁸

نفس العبارة تتكرّر ، ونفس التأكيد ، ونفس السيناريو ، فهل يمكن أن يثق بهم يعقوب . عليه السّلام . ويصدّقهم بعد الذي حدث؟! وكأنّ لسان حاله يقول : . من خلال الاستفهام السّابق . : ألم يكفكم ما فعلتموه بيوسف بعدما أكّدتم حفظكم له؟! ألا تستحون بالعودة إلى مثل هذا الطّلب من جديد بعد خيانتكم ومكرهم؟! .

يرى (ابن عاشور) : « أن جواب . يعقوب . عليه السّلام . يحتمل معنيين : المعنى الأوّل هو (إني آمنكم عليه كما آمنتم على أخيه)» .

والمعنى الثاني هو (ماذا أفاد ائتمانكم على أخيه من قبل حتّى آمنكم عليه؟) .

والاستفهام إنكاري فيه معنى النّفي ، فهو يستفهم عن وجه التأكيد في قولهم ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، والمقصود من الجملة على احتمالها هو التفرّيع الذي في قوله ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا ﴾²⁹ أي : خير حفظاً منكم فإن حفظه الله سلم وإن لم يحفظه لم يسلم كما لم يسلم أخوه من قبل حين آمنتم عليه³⁰ .

يبدو أنّ المعنى الثاني الذي احتمله (ابن عاشور) . ماذا أفاد ائتمانكم على أخيك من قبل حتى آمنكم عليه؟ . من استفهام يعقوب -عليه السّلام . هل آمنكم عليه إلا كما آمنتم على أخيه من قبل؟ . هو الأقرب إلى الصّحّة من الاحتمال الأوّل . إني آمنكم عليه كما آمنتم على أخيه . كون هذا الاستفهام تضمّن معاني الإنكار والنّفي و العتاب والسّخرية و التّهم .

ولكنّ توكل يعقوب -عليه السّلام- على الله وثقته به و إيمانه بقدره جعلوه يستجيب لطلب أبنائه المتمثل في إيذانه لهم باصطحاب أخيم معهم إلى مصر ليكتالوا رغم استنكاره و غضبه و عتابه ، بدليل تعقيبه على الاستفهام و استئنافه للكلام بقوله: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

إلا أنّ هذا التّوكل لم يمنعه من الأخذ بالأسباب ، فليس التّوكل أن تضع ثقتك بالله و تنتظر قدره و تبقى قابعا في مكانك مكتوف الأيدي لا تحرك ساكناً فهذا يسّى تواكلاً . و أمّا التّوكل إنّما يكون بعد السّعي و الأخذ بأسباب التّوفيق و النّصر مصداقاً لقوله- سبحانه وتعالى-: ﴿ وما توفّيقى إلاّ بالله عليه توكلت و إليه أنيب ﴾

31 ﴿

ولعلّ هذا الاستفهام الإنكاري في جواب يعقوب -عليه السّلام- لأبنائه ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل؟ ﴾ . باب من أبواب الأخذ بالأسباب ، وكذا في قوله ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسَلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ ﴾ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٣٢﴾

إذن جعل يعقوب . عليه السّلام- أمر موافقته على طلب أبنائه مشروطا بإتيانهم موثقا من الله ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسَلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ ﴾³³ أي: لتقسمن لي بالله قسما يربطكم أن تردّوا عليّ ولدي إلا إذا أغلبتم على أمركم غلبا لا حيلة لكم فيه، ولا تجدي مدافعتكم عنه³⁴، ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ فقوله تذكير لهم بأن الله رقيب على ما وقع بينهم وهذا توكيد للحلف³⁵ ، وبهذا يكون يعقوب -عليه السّلام- قد أخذ بأسباب تحقيق الحماية والأمن والسّلامة لابنه إذ أقام عليهم الحجة بقسمهم وإشهاد الله- سبحانه وتعالى- عليهم.

قال- سبحانه وتعالى :- ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ؟ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾³⁶ .

يرى (ابن عاشور) : أنّ الغرض من هذا الاستفهام هو التّحكيم لأنّهم لا يسعهم إلا أن يعينوا جزاء يؤخذون به ، فمن هذا تحكيم المرء بذنبه. ومعنى ﴿ ما جزاؤه؟ ﴾ : « ما عقابه؟ » وضمير « جزاؤه » عائد إلى الصّواع بتقدير مضاف دلّ عليه المقام ، أي جزاء سارقه أو سرّفته ؟ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾³⁷ .

والمعنى أنّ من وجد في رحله الصّواع هو جزاء السرقة ، أي تكون ذاته عوضا عن هذه الجريمة ، فيصير رقيقا لصاحب الصّواع ليتمّ معنى الجزاء بذات أخرى وليس المراد قتله.

وجملة (فهو جزاؤه) توكيد لفظي لجملة (جزاؤه من وجد في رحله) لتقرير الحكم وعدم الإفلات منه.

إذا الغرض من هذا الاستفهام هو إقامة (يوسف) الحجّة على إخوته بجعلهم ينطقون هم بالحكم الذي يتقاضون به ويتحاكمون إليه في شريعتهم وقضائهم ونظام حياتهم ألا وهو أخذ السّارق أسيرا أو عبدا لدى المسروق له "وهنا ينكشف طرف التدبير الذي ألهمه الله ليوسف ، فقد كان المتبع في دين يعقوب -عليه السّلام- أن يؤخذ السّارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا في مقابل ما يسرق . ولما كان إخوة(يوسف) موقنين بالبراءة فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنّه سارق"³⁸ ، وبهذا الكيد والتدبير الإلهيين استطاع (يوسف) أن يبقي أخاه معه دون إثارة أي شبهة أو شكّ في الأمر لدى إخوته، بل جعلهم يظنون بأخيم ظنّ السّوء ويّهمونه بالسرقة بدل الدّفاع عنه والأدهى والأمر أنّهم يّهمونه بالسرقة هو وأخوه يوسف زورا وبهتانا وظلما وهم أمامه في حضرته ومجلسه . عليه السّلام . ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَدِّهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾³⁹ ()

ب-6- استفهام كبير إخوة يوسف لإخوته: قال -عزّ من قائل- ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿40﴾ ﴾

بعد أن يئس إخوة يوسف من محاولة استعادة أخيم الصّغير و انتزاعه من قبضة يوسف عن طريق استعطافه بأنّ له أبا شيخا كبيرا و عرضهم بأن يأخذ أحدهم بدله : ﴿ قَالُوا يَتَأَيُّبُ الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعِنَا بِهِ إِنَّآ إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾⁴¹ . راح أكبرهم سنّا يذكرهم بالميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم في الحفاظ على أخيم الصّغير و رده إليه ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ﴾ ؟ كما ذكرهم بجريمتهم السابقة ضدّ (يوسف) ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ ولهذا السّبب قرّر البقاء في مصر و عدم الرّجوع مع إخوته . يقول (ابن عاشور) : « والاستفهام في ﴿ ألم تعلموا ﴾ تقريرى مستعمل في التذكير بعدم اطمئنان أبيهم بحفظه لابنه. »

وجملة ﴿ ومن قبل ما فرطتم ﴾ جملة معترضة ، و(ما) مصدرية ، أي تفریطكم في يوسف . عليه السّلام . كان من قبل الموثق ، أي فهو غير مصدّقكم فيما تخبرون به من أخذ (بنيامين) ، إذ لا يرضى لنفسه أن يبقى غريبا لولا خوفه من أبيه ، ولا يرضى ببقية أشقائه أن يكيدوا له كما يكيدون لغير الشقيق⁴² .

وتذكير الأخ الأكبر لإخوته بالميثاق وبما فعلوه بيوسف دون سواه يحتمل أمرين :

الأول : أن يكون يعقوب . عليه السّلام . قد أوصاه وكلفه هو باعتباره الأكبر سنّا ، وربّما المسؤولية يتحمّلها . عادة . كبير إخوته ، فاستحى أن يعود دون أخيه الصّغير ، بعد الميثاق أو القسم الذي أخذه عليهم والدهم ، خاصّة وأنّ هذه ليست الأولى ، فلقد فرطوا في (يوسف) من قبل ، بعد وعدهم برعايته وحمايته والحفاظ عليه .

و الثاني : ربّما كان له أبناء فشعر بعاطفة الأبوة ، و عرف قيمة أبنائه ومنزلتهم في قلبه ، فأحسّ بتأنيب الضّمير ، وأدركته شفقة على والده الذي أصبح لا يطبق ولا يحتمل المآسي بتأنيب الضّمير ، بعد كلّ ما عاناه من أحزان أنهكت قواه ، وهموم هدّت بدنه نتيجة فقدّه ليوسف . عليه السّلام . .

وربّما تكون هذه الأسباب المجتمعة هي التي منعتهم من العودة مع إخوته إلى الدّيار ، فيكون بقاؤه في مصر كما يقول (ابن عاشور) علامة دالّة على صدق قولهم في سبب عدم رجوع أخيم معهم أي أنّ يعقوب . عليه السّلام . سيؤوّل علامة بقاء ابنه في مصر بخوفه منه ، إذ لا يمكن لإخوته الأشقاء أن يكيدوا له مثل كيدهم لأخيم غير الشقيق وهذه علامة دالّة على صدقهم .

إذاً بقاء (روبين) في مصر محاولة لإقناع أبيه بصدقهم هذه المرة وبالتالي فعلاية البقاء هي أسلوب إقناعي .

والسؤال الذي يطرح هنا هو ما الذي كان يقصده (ابن عاشور) بخوف الأخ الأكبر ليوسف من أبيه ؟

هل هو الخوف من العقوبة النفسية . بعد عدم التصديق . كالتأنيب والعتاب واللوم ؟ أم الخوف من العقوبة المادية كالضرب والسجن مثلا ؟.

وأظن أنّ هذا الأخير مستبعد لأنه لو كان كذلك لعاقبهم به إثر تفريطهم أو تضييعهم ليوسف - عليه السلام -

ب-7- استفهام يوسف لإخوته عن جريمتهم:

قال - جلّ جلاله : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾⁴³ .

جاء استفهام يوسف . عليه السلام . بقوله : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ ﴾ . ردًا على طلب إخوته المقرون بتوسّلهم واستعطافهم له بأن يقبل استبدال بضاعتهم بالقمح ، وإيفاء الكيل لهم والتصديق عليهم . ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَنَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾⁴⁴ .

فالنداء في قولهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ للفت انتباهه إلى الحالة المأسوية المزرية التي ألوا إليها وهي معاناة الفقر والجوع ، ولفظة (الْعَزِيزُ) هي لقب التعظيم تحمل في طياتها استعطافا وتوسلا ثم التصريح بحالتهم ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ ، أي : ألم الفقر والجوع و محاولة لاستعطاف واسترحام يوسف والتأثير فيه ليستجيب لهم وهذا الاستعطاف ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ ، تمهيد مؤثر نفسيًا وعاطفيًا يسهم ويدعم في عملية الاستجابة لطلبهم ﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ ثم التذكير بثواب الله - عزّ وجل - الذي يمنحه للمتصدقين ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ جاء تدعيما لطلبهم ومحاولة منهم لإقناع (يوسف) به .

يرى (الزركشي) أنّ الغرض من الاستفهام ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ؟ هو تذكير (يوسف) لإخوته بالجرائم التي ارتكبوها في حقه⁴⁵ ، إذ رموه في الجب وهو صبي صغير ، وباعوه بأبخس الأثمان ، وأبعدوه عن والده وعشيرته وأرضه ، وما فعلوه أيضا بأخيه الصّغير ، بعد المكيدة التي نصّبها له ، إذ أنّه بدل أن يدافعوا عنه راحوا يثبتون عليه التّهمة ويقذفون (يوسف) بالسّرقة ظلما وبهتانا حيث ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾⁴⁶ وهذا التذكير مقرون بالعتاب والاستنكار والدليل هو وصفه لهم بالجهل ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ .

وأما (ابن عاشور) فيرى أنّ هذا « الاستفهام مستعمل في التوبيخ و (هل) مفيدة للتّحقيق لأنّها بمعنى (قد) في الاستفهام ، فهو توبيخ على ما يعلمونه محققا من أفعالهم مع يوسف . عليه السلام . وأخيه أي أفعالهم الذميمة بقريئة التوبيخ »⁴⁷

وما دام أنّ (هل) هنا بمعنى (قد) التي تفيد التحقيق فإنّ الاستفهام تقريرى في قوله : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾؟ بمعنى : قد علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ، و الغرض من التقرير هو التذكير على رأي (الزركشي) ، والتوبيخ على رأي (ابن عاشور) .

إذ الغاية من هذا الاستفهام التقريرى هو تذكير وتوبيخ إخوته على جرائمهم التي ارتكبوها في حقّه وفي حقّ أخيه ، و كأنّ لسان حاله يقول : أبعد كل الذي فعلتموه بيوسف ، جنتم الآن تتوسّلون إليه وتستعطفونه بأن يوفى لكم الكيل ويتصدّق عليكم؟! أفلا تستحيون!؟

ب 8. استفهام إخوة (يوسف) ليوسف -عليه السّلام:

وتجدر الإشارة إلى أنّ استفهام يوسف . عليه السّلام . كان علامة توصلّ بها إخوته إلى التّعرف عليه فجاء ردّهم على استفهامه في شكل استفهام: ﴿ قَالُوا أَيْنَ أَنْتَ يَا يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾⁴⁸ .

والاستفهام في قولهم ﴿ أَيْنَ أَنْتَ يَا يُوسُفُ ﴾ ؟ تقريرى كونهم أدركوا من استفهامه . هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟- بأنّه (يوسف) أخوهم. والغاية من استفهامهم هي تأكيد التقرير ، إذ المعنى المراد منه هو (إنّك لأنّك يوسف) إثبات وتأكيد بحرف التّوكيد (إنّ) ولام الابتداء التي تفيد التّوكيد، وضمير الرّفْع المنفصل (أنت)، الذي أفاد التّوكيد أيضا هنا باعتباره بدلا من الضمير المتّصل (الكاف) في (إنّك) والاستفهام بالهمزة ﴿ أَيْنَ أَنْتَ يَا يُوسُفُ ؟ ﴾ زيادة في التّأكيد والتّقرير يقول (ابن عاشور) في تفسيره « بأنّ قولهم : ﴿ أَيْنَ أَنْتَ يَا يُوسُفُ ﴾ يدلّ على أنّهم استشعروا من كلامه ثمّ من ملامحه ثمّ من فهم قول أبيهم لهم : ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ إذ قد اتّضح لهم المعنى التّعريضيّ من كلامه فعرفوا أنّه يتكلّم مريدا نفسه، وتأكيد الجملة ب (إنّ) ولام الابتداء وضمير الفصل لشدة تحقّقهم أنّه يوسف -عليه السّلام -، وأدخل الاستفهام التّقريرى على الجملة المؤكّدة لأنّهم تطلّبوا تأييده لعلمهم به»⁴⁹ يفهم من قول (ابن عاشور) بأنّ إخوة يوسف تعرّفوا على أخيم (يوسف) من خلال كلامه المتمثل في الاستفهام " هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ " ثمّ من ملامحه أي التّغيّرات الفيزيولوجيّة التي تطرأ على الوجه والجسد مصاحبة للحالات النّفسيّة والانفعاليّة كتقلّص عضلات الوجه واحمرار الوجنتين وجحوظ العينين واقتران الحاجبين ، والارتعاش وما شابه ذلك، ولا بد أنّ يوسف . عليه السّلام . انتابته مثل هذه الحالات النّفسيّة أثناء استفهامه لإخوته الذي أراد به تذكيرهم بجرائمهم وتوبيخهم عليها فشعر بنوع من الغضب والحزن والأسف والحسرة، ولاشكّ أنّ هذه الحالات النّفسيّة والانفعاليّة قد انعكست وارتسمت على ملامح وجهه وجسده . عليه السّلام . كشخوص البصر، وهزّ الرأس وحركة اليدين ونبرات الصّوت ، والآهات ، والتّنهيدات وغيرها .

وربما تظهر هذه الملامح ضعيفة وقليلة نوعا ما كون يوسف -عليه السلام- نبي يتسم بالحكمة، ويتحكم في أعصابه ويكبح جماح نفسه وانفعالاتها لأنه يتصف بالصبر والتسامح والعفو، ودليل ذلك في الصبر هو قوله ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾⁵⁰.

أما التسامح والعفو ففي قول الله تعالى على لسان يوسف -عليه السلام- ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾⁵¹.

فقول (يوسف) المتمثل في الاستفهام والملاحم المصاحبة له أمارتان تذكّر من خلالهما إخوة يوسف قول أبيهم الذي لم ينتهوا إليه ساعتها ولم يتدبروا معناه ﴿... وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾⁵² تذكروا بأن والدهم يعقوب . عليه السلام- نبي يوحى إليه ولذلك هو أعلم منهم . فهو يعلم بأن الله رحيم بعباده يأبى الظلم ويظهر الحق ويزهق الباطل ولو بعد حين ، ولذلك كان إيمانه بالله كبيرا وثقته به قوية ورجاؤه فيه لا ينقطع بدليل قوله -عز وجل - على لسانه : ﴿ يَبْنَئُ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾⁵³.

إذا كلام يوسف . عليه السلام . و الملاحم الفيزيولوجية المصاحبة له ، وتذكّر إخوة (يوسف) قول أبيهم كلها علامات وأمارات استدلوا بها على أخيم يوسف . عليه السلام .
ب 9 . استفهام يعقوب . عليه السلام . لأبنائه معاتبا إياهم :
قال -سبحانه وتعالى :- ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَأَرْتَدَّ بُصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾⁵⁴ .

لقد جاء استفهام يعقوب . عليه السلام . في قوله : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ؟ جوابا وردا على قول أبنائه ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾⁵⁵ .

يقول (ابن عاشور) : « جواب للبشارة لأنها تضمنت القول ، ولذلك جاء فعل (قال) مفصولا غير معطوف لأنه على طريقه المحاورات »⁵⁶ .

والغرض من استفهام يعقوب . عليه السلام . هو عتاب أبنائه على عدم تصديقه في أملة وتفاؤله بإيجاد يوسف . عيه السلام . حيا ، حيث أن ذكره ليوسف كان يغضبهم ويفقدهم صوابهم إلى درجة إغلاظهم له في القول : " تالله إنك لفي ضلالك القديم " هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تذكيرهم بأن الله - سبحانه وتعالى- وهبه العلم كونه نبيا يتنزل عليه الوحي فيعرف به أمورا وأسرارا لا يمكن لأبنائه أن يدركوها بدليل قوله : " إني أعلم من الله ما لا تعلمون " ولذلك كان رجاءه في الله لا ينقطع .

وفعلا يتحقق رجاء يعقوب وتأتي البشرية بسماع الخبر السعيد ، (يوسف) على قيد الحياة ، ويرتد له

بصره .

كلّ هذه الأمور جعلت إخوة (يوسف) يقتنعون بنصرة الله للحقّ على الباطل فيعترفون بذنوبهم وأخطائهم، ويطلبون من والدهم أن يستغفر لهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾⁵⁷.

ولكنّ أباهم مازال متألماً وجريحا، ولم يلن قلبه بعد من ناحيتهم . رغم فرحته الغامرة وسعادته التي لا توصف بعد معرفته بأنّ يوسف ما زال حيّاً يرزق . بدليل قوله تعالى على لسان يعقوب . عليه السّلام . ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾⁵⁸.

يقول (سيد قطب): « وحكاية عبارته بكلمة (سوف) لا تخلو من إشارة إلى قلب إنسانيّ مكلوم ، أي أنّ يعقوب . عليه السّلام . كونه مازال جريحا ومتألماً ممّا سببه له أبنائه من معاناة وأحزان ، وظّف لفضة (سوف) التي تفيد المستقبل البعيد ليرجى بذلك طلب أبنائه المتمثل في الاستغفار لهم إلى حين تطيب نفسه ، ويصفو قلبه ، وتلتئم جراحه وتخفّ آلامه وأحزانه »⁵⁹.

خاتمة:

وخلاصة القول أن الاستفهام في سورة يوسف كان ذا أهمية بالغة في العملية التواصلية التبليغية، وفي بناء دائرة الحوار بين شخصيات القصة، سواء ما دار بين أخوة يوسف وأبيهم يعقوب عليه السلام. أو ما دار بينهم وبين أخيم يوسف. عليه السلام. أو ما دار فيما بينهم أخوة يوسف مع بعضهم البعض. أو بين يوسف. عليه السلام. والسجينين.

ويشكل الاستفهام المجازي على اختلاف أغراضه البلاغية. سواء كان تقريراً أو إنكاراً، عتاباً أو توبيخاً، تنبيهاً أو تذكيراً. لبنة أساسية في بناء العملية الحجاجية داخل إطار حلقة الحوار وصولاً إلى تحقيق الهدف المتوخى ألا وهو الإقناع.

وعلى هذا الأساس فإن أهم النتائج التي يتم التوصل إليها من هذه الدراسة هي:

- 1) يسهم أسلوب الاستفهام بنوعيه الحقيقي وغير الحقيقي في بناء العملية التواصلية التبليغية.
- 2) يعتبر الاستفهام المادة الأولية والأساسية في تشكيل حلقة الحوار بل يعتبر وقوداً له؛ إذ لا يمكن أن يقوم حوار بدون استفهام، أو مجرد تصور حوار بدون استفهام.
- 3) تشكل الأغراض البلاغية للاستفهام المجازي مادة حجاجية تسهم في تحقيق عملية الإقناع.
- 4) تظهر حجاجية الاستفهام التقريرية في حمل المخاطب على الاعتراف بالحقيقة الثابتة دون جبر أو قصر وصولاً إلى إقناعه.
- 5) غاية الاستفهام الإنكاري هي تنبيه السامع أو المتلقي ليراجع نفسه ويرجع عن خطئه، ويعود إلى رشده وصوابه.
- 6) يسهم الاستفهام المجازي في الاقتصاد اللغوي، أي: الإيجاز والاختصار في الكلام وهو غاية البلاغة التي تسعى إلى توفير الجهد وريح الوقت.
- 7) الاستفهام المجازي على اختلاف أغراضه البلاغية ولا سيما غرضي التقرير والإنكار. يعتبر أسلوباً حجاجياً وإقناعياً ناجعاً في عمليتي الحوار والتبليغ. لا يقل أهمية عن مختلف الأساليب الحجاجية والإقناعية الأخرى.

هوامش البحث:

¹ ابن منظور. لسان العرب: ج10: ص343

² سورة يوسف الآية 51

³ سورة يوسف الآية 71

⁴ سورة يوسف الآية 11

⁵ سيد قطب: في ظلال القرآن مج 4، ج 12، ط 15، ص 1974

⁶ سيد قطب المصدر نفسه الصفحة نفسها

- ⁷ أبو حمدة محمد علي : في التذوق الجمالي لسورة يوسف مرجع سابق ص 64
- ⁸ سورة المنافقون الآية 01
- ⁹ ابن عاشور محمد الطاهر: " تفسير التحرير والتنوير " ص 227
- ¹⁰ سورة يوسف الآية 12
- ¹¹ سورة يوسف الآية 25
- ¹² سيد قطب، في ظلال القرآن مج4، ج 12 ص 1982
- ¹³ محمد طاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 12 ص 256.
- ¹⁴ ويسمى بالعام لأنه يشترك فيه المفرد والمثنى والجمع ، والمذكرو المؤنث.
- ¹⁵ أحمد جمال الدين : لغة الحوار في سورة يوسف، دراسة أسلوبية ، أقوال يوسف وإخوته وامرأة العزيز نموذجاً، ص 16
- ¹⁶ سورة يوسف ، الآية 35
- ¹⁷ سورة يوسف ، الآية 39
- ¹⁸ ينظر محمد طاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ، ج 12 ص 274
- ¹⁹ سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج 12 ص 1989
- ²⁰ ينظر محمد طاهر بن عاشور، المصدر نفسه و الصفحة نفسها.
- ²¹ سورة الأنبياء ، الآية 22
- ²² محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 13
- ²³ سورة يوسف الآية 75
- ²⁴ سورة يوسف الآية 59
- ²⁵ محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 13
- ²⁶ سورة يوسف الآية 64
- ²⁷ سورة يوسف الآية 63
- ²⁸ سورة يوسف الآية 12
- ²⁹ " حفظاً" مصدر منصوب على التمييز في قراءة الجمهور .وقراءه حمزة والكسائي وحفص " حافظان " على أنه حال من اسم الجلالة وهي حال لازمة في ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 16
- ³⁰ ابن عاشور : المصدر نفسه ، الصفحة نفسها
- ³¹ سورة هود، الآية 88
- ³² سورة هود ، الآية 66
- ³³ سورة يوسف الآية 75
- ³⁴ مجازاً في الحالة التي لا يستطاع التغلب عليها " في محمد الطاهر بن عاشور" المصدر نفسه. الصفحة نفسها.
- ³⁵ سيد قطب : في ظلال القرآن ج 13 ص 2017
- ³⁶ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التنوير، ج 13 ص 20
- ³⁷ سورة يوسف ، الآية 74
- ³⁸ سورة يوسف الآية 75
- ³⁹ سيد قطب، في ظلال القرآن ج 13 مج 4 ص 2019

- 40 سورة يوسف الآية 77
- 41 سورة يوسف الآية 80
- 42 سورة يوسف الآية 79/87
- 43 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 39-40
- 44 سورة يوسف الآية 89
- 45 سورة يوسف الآية 88
- 46 الزركشي : البرهان في علوم القرآن ج 2 ، ط1 دار إحياء الكتب العربية القاهرة 1958 ص 340
- 47 سورة يوسف الآية 77
- 48 ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 47
- 49 سورة يوسف الآية 90
- 50 محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 48 . 49
- 51 سورة يوسف الآية 90
- 52 سورة يوسف الآية 92
- 53 سورة يوسف الآية 86
- 54 سورة يوسف الآية 87
- 55 سورة يوسف الآية 96
- 56 سورة يوسف الآية 95
- 57 محمد الطاهر بن عاشور . تفسير التحرير والتنوير ج 13 ص 54
- 58 سورة يوسف الآية 97
- 59 سيد قطب في ظلال القرآن ص 2028